رحلات علماء سوس إلى الحجاز بين البعدين الديـــني والعلـــمي

مبارك لمين بن الحسن
جامعة ابن زهر/أكادير

تمهيـــد

انخرط العديد من أبناء سوس العالمة في تيار الرحلة إلى بعض مناطق العالم الإسلامي.

ويبقى الحجاز في صدارة المناطق التي اجتذبت الرحالة السوسيين لمكانته الدينية، وأهميته العلمية. ويبدو من خلال المادة المصدرية التي تناولت موضوع رحلة علماء سوس إلى الحجاز، أن ما دُوّن من هذه الرحلات، وما كُتب عن العلماء الرحالة، يعد نزرا يسيرا إذا ما قورن بقوة تيار الرحلة السوسية إلى الديار الحجازية. وبناء عليه فقد قسمت عناصر هذا الموضوع إلى ثلاثة مباحث:

الأول : رحلات علماء سوس إلى الحجاز بين مصنفات التراجم وكتب الرحلات.

الثاني : البعد الديني لرحلة علماء سوس إلى الحجاز.

الثالث: البعد العلمي لرحلة علماء سوس إلى الحجاز.

المبحث الأول
رحلات علماء سوس إلى الحجاز
بين مصنفات التراجم وكتب الرحلات

توزعت كتب التراجم ومصنفات الرحلة أخبار رحلات علماء سوس إلى الحجاز، وتبدو المعطيات المتضمنة في كتب التراجم –وبالذات مصنفات محمد المختار السوسي- حول تلك الرحلات محدودة لا تتعدى في غالب الأحيان، إشارات خاطفة عن حج المترجَم ولقائه مع شيوخ العلم، دون استطراد لتجلية الأبعاد الدينية والعلمية لرحلته.

ولئن عجزت كتب التراجم عن إشباع رغبة الباحث في المادة العلمية الثرية والمستفيضة حول الرحلة السوسية إلى الحجاز، إلا أن مبادرة بعض العلماء الرحالة إلى تدوين وقائع رحلتهم الحجازية سدت بعض الفراغ، وأتحفت المكتبة السوسية بلون آخر من الكتابة اصطلح عليه اسم "الرحلة الحجازية"، غير أن هذه الرحلات المدونة تطرح بدورها جملة من النقائص تحول دون الاستفادة من محتواها؛ ومن ذلك فقدان بعضها كلية، ولم يبق منها غير اسمها، بينما يعاني بعضها الآخر من البتر، ومن ضياع أطراف منها، أما بعض الرحلات فبقيت حبيسة الخزانات الخاصة، لا يجد النور والهواء سبيلا إليها، فضلا عن الباحث. وبالمقابل، تنتظر بعض الرحلات سواعد لتحقيقها وإخراجها إلى النور من أرشيف بعض الخزانات العمومية والخاصة، وتتحفنا المادة المصدرية المعتمدة بعناوين لرحلات حجازية سوسية، أو لأسماء أصحابها، نذكر منها ما يلي:

- رحلة أبي العباس أحمد بن محمد بن داود الهشتوكي المعروف بأحوزي نزيل تامكَروت، وهي رحلته الأولى إلى الحج سنة(1096هـ/ 1684م) عنونها بـ"هداية الملك العلام، إلى بيت الله الحرام، والوقوف بالمشاعر العظام، وزيارة النبي عليه السلام"[1].

- الرحلة الثانية لأحوزي المذكور آنفا، التي تمت عام(1119هـ/ 1707م)[2]، وهي مفقودة.

- رحلة أبي محمد عبد الواحد الصنهاجي السوسي (ت1135هـ/ 1722م)[3].

- رحلة أبي العباس أحمد بن عبد الله الإيبوركي، حج عام(1135هـ/ 1722م)، وتوفي عام(1136هـ/ 1723م)[4].

- رحلة أبي مدين عبد الله بن أحمد الروداني(ت1157هـ/ 1743م)، بدأ رحلته سنة(1152هـ/ 1739م)[5].

- رحلة أبي العباس أحمد بن محمد السوسي العباسي (ت1149هـ/ 1736م)[6].

- رحلة أبي العباس أحمد بن عبد الله بلقاسم السوسي الكَرسيفي(ت1180هـ/ 1766م)[7].

(1) دليل مؤرخ المغرب الأقصى(ص253- برقم 1617)، سوس العالمة(ص190).
(2) دليل مؤرخ المغرب الأقصى(ص235) رقم(1486).
(3) نفسه، رقم(1487)، سوس العالمة(ص190).
(4) دليل مؤرخ المغرب الأقصى، رقم 1488، سوس العالمة(ص189).
(5) نفسه(ص236)، رقم (1492)، سوس العالمة(ص188).
(6) نفسه(ص237، رقم 1493)، سوس العالمة(ص189).
(7) نفسه، ص. 238، رقم 1502، سوس العالمة، ص. 189.

- رحلة أبي عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي (ت1189هـ/ 1775م)[8]، ذكر فيها جملة ممن لقيهم من العلماء، وقد نشرها د. عبد العالي لمدبر ضمن منشورات الرابطة المحمدية للعلماء 2011م.

- رحلة أبي إسحاق إبراهيم السوسي (ت1199هـ/ 1784م)[9].

- رحلة أبي عبد الله محمد بن سعيد الشريف الكثيري السوسي الهشتوكي (ت أواخر ق. 13هـ/ 19م)[10].

- رحلة لأحد السوسيين الغيغائيين، من أهل القرن 13هـ/ 19م[11].

- رحلة أبي عبد الله محمد السوسي اليزيدي (ت1309هـ/ 1891م)[12].

- رحلة أبي علي الحسين السوسي الجراري[13].

- رحلة أبي الحسن الحاج علي بن أحمد السوسي الإيسكَي[14].

- "المرآة المجلوة في الرحلة إلى الصفا والمروة"، لأبي إسحاق إبراهيم بن صالح السوسي التازروالتي (ت1352هـ/ 1933م)[15].

"رحلة العيني" كتبها إبراهيم الإكَراري (ت. أوائل القرن 12هـ/ 18م)[16]، والموجود مختصر لها بقلم محمد بن مسعود المعدري(د1282هـ1865م ت1330هـ1912).

- "الرحلة الحجازية" للشيخ الإلغي، كتبها نظما في زهاء ألفي بيت، كانت حجته عام(1305هـ/ 1888م)[17].

وهكذا تعددت الرحلات الحجازية السوسية، وكثر عدد العلماء السوسيين المنخرطين في تيار الرحلة إلى الحرمين، وإن المتأمل لفحوى تلك الرحلات، والدارس لتراجم العلماء الرحالة، ليلحظ أن ثمة أبعادا مختلفة ومتباينة تؤطر تلك الرحلات، وفي مقدمتها البعد الديني.

---

(8) نفسه رقم 1504. توجد بالخزانة العامة بالرباط، تحت عدد896 ضمن مجموع. سوس العالمة(ص 193).
(9) نفسه، رقم 1505.
(10) نفسه، ص. 240، رقم 1521، سوس العالمة، ص. 201.
(11) نفسه، رقم 1523.
(12) نفسه، رقم 1526، سوس العالمة، ص. 202.
(13) نفسه، ص. 244، رقم 1552.
(14) دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص. 246، رقم 1562.
(15) دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص. 248، رقم 1588، سوس العالمة، ص. 202.
(16) نفسه، ص. 226.
(17) نفسه، ص. 227.

المبحث الثاني

البعد الديني لرحلة علماء سوس إلى الحجاز

تمثل البعد الديني لرحلة علماء سوس إلى الحجاز في مظهرين أساسين هما:

أولا: تأدية فريضة الحج

عكست كتب التراجم هذا الجانب في الرحلات الحجازية السوسية، بوضوح، وبمختلف الصيغ[18]؛ ومن السوسيين من حج حِججا متتالية، فأبو بكر بن يوسف السكتاني(ت1063هـ/ 1653م)، الفقيه المحدث المقرئ المفسر «حج أكثر من عشر حَجات»[19]، كما حج محمد بن محمد التكركَستي(ت1167هـ/ 1754م) مرارا[20]، أما أحمد بن علي المداسي السوسي(ت1130هـ/ 1718م)، فسافر به جده إلى الحجاز فحج به وهو صبي، وفي كبره حج مرارا[21].

وقد يقضي بعض السوسيين نحبهم في طريق الحج، أو بعد فراغهم من أداء المناسك؛ فأحمد بن عبد الله الهشتوكي حج بيت الله الحرام أكثر من مرة، ومات في المرة الأخيرة بمصر[22]. أما أحمد التينزرتي(ت1030هـ/ 1621م)، المقرئ بالجامع الجديد بتارودانت، فمشى خفية إلى الحج، لم يُعلِم بشأنه أحدا، وتوفي بمكة بعد فراغه من حجه[23].

ومن السوسيين من قضى على ظهر السفينة بعد قفوله من الحج، كما هو حال العلامة عبد الله بن محمد الجيشتيمي[24] سنة(1198هـ/ 1794م)، وكان معه في تلك السفرة الحجازية كثير من العلماء.

إن تعدد الحجج وتلازمها عند بعض السوسيين، يشير إلى حضور دافع ديني آخر في برنامج الرحلة السوسية إلى الحجاز، ويتمثل في مجاورة الْـحرم.

---

(18) منها: «حج وجاور»، و«حج سنة...»، و«أدى فريضته»، و«حج مرارا».
(19) طبقات الحضيكي: 172/1.
(20) نفسه: 366/2.
(21) نفسه: 95/1.
(22) نفسه.
(23) نفسه: 51/1-52.
(24) المعسول: 16/2-17.

ثانيا: مجاورة الحرمين

لم يحظ هذا الدافع الديني باهتمام الدارسين الذين عالجوا أغراض الرحلة السوسية إلى الحجاز، مقتصرين على دافع أداء فريضة الحج، في حين تسجل كتب التراجم هذا الجانب (الجوار) بوضوح في رحلة بعض السوسيين؛ بل وتميز بينه وبين الحج بعبارات، منها: "حج وجاور"، كما تشير إلى قصر مدة الجوار أو طولها.

وبالجرد الاستكشافي للمادة المصدرية المعتمدة، أمكن الوقوف على بعض الأسماء السوسية التي جاورت بالحرمين، وهي:

- الحاج أحمد بن عبد الرحمن الجيشتيمي (1231-1327هـ/ 1816-1919م)، حج وجاور الحرم إلى أن حج في السنة الأخرى[25].

- أبو بكر بن يوسف السكتاني(ت1063هـ/ 1653م)، جاور بالحجاز سنين عديدة[26].

- محمد بن سليمان الروداني[27] (ت1095هـ/ 1684م)، جاور بالمدينة المشرفة، منعزلا عن الناس، لا يخرج إلا ليلا، ورعا عن الشبهات، ولا يأكل من تمر المدينة لفساد معاملتهم في المساقاة على حد قوله[28].

- أحمد بن علي المداسي السوسي[29] (ت1130هـ/ 1718م)، جاور لمدة سنتين.

- أبو القاسم بن غازي الحامدي الشبـي، من أهل القرن العاشر، العابد الناسك، جاور حتى توفي بالحرم المكي[30].

إن حرص بعض السوسيين على مجاورة الحرمين يشير إلى حضور بعد آخر في رحلتهم إلى الحجاز، ويتعلق الأمر بالبعد العلمي.

---

(25) المعسول: 85/6.
(26) طبقات الحضيكي: 172/1.
(27) الصفوة، ص: 331-332، رقم 242.
(28) محمد بن سليمان الروداني من أعلام المغرب في القرن الحادي عشر الهجري لأحمد أبو زيد(ص45).
(29) طبقات الحضيكي: 99/1.
(30) نفسه: 164/1.

المبحث الثالث

البعد العلمي لرحلة علماء سوس إلى الحجاز

لا يشد بعض السوسيين الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فحسب، وإنما كانوا يزاوجون هذه الشعيرة بفريضة أخرى هي طلب العلم ونشره، ومن ثم تحقيق مغزى الحج كما في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[31].

فما هي إذن الدواعي العلمية لرحلة علماء سوس إلى الحجاز؟.

أولا: الاحتكاك بشيوخ العلم

يقرر ابن خلدون أن الرحلة «في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم»[32]. وفي هذا الإطار جالس السوسيون شيوخ العلم من مختلف الأقطار، ومن تخصصات علمية متباينة؛ فقد أخذ الحاج الحبيب البوشواري عن العلامة المحدث جعفر الكتاني المغربي سنة(1331هـ/ 1912م)، وعن الشيخ يوسف النبهاني من فلسطين بالمدينة المنورة، وعن الشيخ حمدان التونسي[33].

أما ويرْزْجان بن محمد الجزولي، المتوفى أواخر القرن السادس الهجري، فقد صحب أبا بكر بن العربي المعافري الأندلسي بالمشرق[34].

وقد يستغل السوسي محطات عبوره إلى الحجاز للاحتكاك بشيوخ العلم، فقد لقي محمد بن سليمان بن داود الجزولي، الشيخَ البرزلي وغيره في تونس، ولقي بالقاهرة السباطي، كما أخذ العلامة عبد الله الجيشتيمي عن علماء الأزهر وأجازوه[35].

وتجاوز بعض السوسيين محطات العبور إلى الحرمين، ليشد الرحال إلى بلاد الشام، حيث أولى القبلتين، وثالث الحرمين، كما هو حال أبي بكر بن يوسف السكتاني، الرحالة المحقق، الصوفي الناسك، الذي أخذ في القدس عن الشيخ أحمد العلمي الطريقة والتصوف[36].

---

(31) سورة الحج، الآية 28.
(32) المقدمة: 1255/3.
(33) المعسول: 283/17، والرتائم، ص: 345-346 .
(34) طبقات الحضيكي: 594/2.
(35) نفسه: 234/1، والمعسول: 10/6.
(36)طبقات الحضيكي: 172/1.

إن حرص السوسيين على الاحتكاك بشيوخ العلم والاستكثار منهم، يرمي إلى تحقيق جملة من المطالب؛ منها استجازة أولئك العلماء.

ثانيا: طلب الإجازة

تميزت طرق نقل العلم وتحمله عند المسلمين بتعدد أقسامها، وتعتبر الإجازة أهم هذه الأقسام، وذكر ابن خير الإشبيلي[37] فائدتين للإجازة: أولاهما: استعجال الرواية عند الضرورة، وثانيتهما: الاستكثار من المرويّ.

وقد حرص السوسيون على استجازة شيوخ العلم في طريقهم إلى الحجاز، وفي قلب الحرمين، ومن الأسماء في هذا الإطار، على سبيل المثال لا الحصر:

- العلامة عبد الله بن محمد الجد الأعلى للجيشتيميين، لقي في حجته علماء الحرمين وعلماء مصر فأجازوه، وأثنوا عليه خيرا[38].

- العلامة أحمد بن عبد الرحمن الجيشتيمي[39]، حج واستجاز كثيرين من علماء الحجاز.

- محمد بن عبد الرحمن الكَرسيفي[40]، لقي عليا الأجهوري بمصر وأخذ عنه وأجازه.

- الحاج الحبيب البوشواري، أجازه شيوخه بالمشرق[41]، وذكر المختار السوسي[42] أن تلك الإجازات ضاعت من جملة ما ضاع من كتبه عندما انسل إلى بعمرانة من تنالت.

وقد يظفر السوسي في سعيه لاستجازة علماء الحرمين، بغنيمة علمية أخرى، تتمثل في علو الإسناد.

ثالثا: طلب العلو في الإسناد

يعتبر الإسناد «خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة»[43]. وقد حض العلماء على تقييد العلم بالأسانيد، كارهين كلَّ علم عار من السند، ونقل ابن خير الإشبيلي عن أحدهم بأن كل علم خال من «حدثنا، أو أخبرنا، فهو خَلٌّ وبَقْلٌ»[44].

(37) الفهرسة، ص. 16.
(38) المعسول: 10/6.
(39) نفسه: 85/6.
(40) طبقات الحضيكي: 328/2.
(41) الرتائم، صفحات: 230، 345-346.
(42) المعسول: 285/17.
(43) علوم الحديث لابن الصلاح، ص. 231.
(44) الفهرسة، ص. 12.

وينقسم الإسناد من حيث درجته إلى إسناد عالٍ وإسناد نازل، والعلو في الإسناد هو قلة عدد الوسائط في سند المروي مع اتصال السند، واعتبر الإمام أحمد بن حنبل (ت241هـ/ 855م) «الإسناد العالي سنة عمن سلف»[45]، ولا يتحقق العلو في الإسناد إلا بشد الرحال إلى مختلف الأقطار، ومن ثم استحبت الرحلة في طلبه[46].

بناء على أهمية الإسناد وأفضلية التعالي فيه، اجتهد العديد من الراحلين السوسيين إلى الحجاز في طلب العلو في إسناد حصيلتهم العلمية.

وكانت للحاج الحبيب[47] على سبيل المثال، همة عالية في هذا المضمار، فقد أخذ العديد من المرويات بالحجاز عن أصحابها مباشرة مثل الشيخ يوسف النبهاني.

وبموازاة مع السعي لطلب العلو في إسناد المرويات، حرص بعض السوسيين على إدخال المصنفات المروية إلى بلدهم.

رابعا: نقل المرويات

أدخل الحاج الحبيب البوشواري العديد من المرويات ومنها مؤلفات شيخه يوسف النبهاني التي بلغت أربعة وستين (64) مؤلفا، ما بين مجلدات وأجزاء ورسائل وكتيبات، ويعتبر الشيخ أول من أدخلها إلى المغرب[48].

وقد يفرد بعض السوسيين جانبا من جلوسهم لشيوخ العلم بالحرمين، لاستفتائهم حول قضايا عمت بها البلوى في سوس، عسى أن يظفروا بأجوبة شافية يحملونها معهم إلى بلدهم.

خامسا: استفتاء علماء المشرق

حج شيخ الإسلام الحاج أحمد بن عبد الرحمن الجيشتيمي سنة(1279هـ/ 1863م) وجاور هناك سنة(1280هـ/ 1864م) ورفع قصيدة نونية إلى علماء مكة يستفتيهم في مسائل شغلت الساحة العلمية بسوس، وجاء في مطلع القصيدة[49]:

وبعد فإن العبد يبغي الجواب في ... أمور جرت في قطره دون نكران
جوابكم الشافي فيه من غلة الصدى ... بتبيين حكم الكل أكمل تبيان

واستفتى الجيشتيمي علماء الحرم المكي في أمور ثلاثة، وهي:

(45) اختصار علوم الحديث، ص. 106.
(46) علوم الحديث، ابن الصلاح، ص. 231.
(47) الرتائم، صفحتا 345-346، والمعسول: 283/17.
(48) الرتائم، صفحتا 27-28.
(49) المعسول: 87/6، المجموعة الفقهية في الفتاوي السوسية، صفحات 81-86.

أ-بيع الثنيا الذي عمت به البلوى في سوس.

ب-أجرة الفقهاء المحكمين في النوازل، حيث يأخذون من المحكوم له ما يتراضون معه عليه، على عادة فقهاء البوادي.

ج-أجرة المفتين.

وتوجه الجيشتيمي بهذه القضايا إلى مجموعة من العلماء متبايني التوجه المذهبي، سعيا منه للحصول على أجوبة شافية حول المسائل المطروحة، ومن هؤلاء العلماء: العلامة مفتي المالكية بمكة المشرفة سيدي الحسين بن إبراهيم، إضافة إلى عالمين، أحدهما شافعي، والآخر حنفي، لم يذكر الجيشتيمي اسميهما.

وإذا حرص علماء سوس على استفتاء المشارقة والاستفادة منهم، فإنهم لم يبخلوا بعطائهم في إفادة نزلاء الحرمين.

سادسا: الإفادة العلمية

لم ينحصر النشاط العلمي السوسي بالحجاز على الاستفادة فحسب؛ بل تعداها إلى إفادة المشارقة في عقر دارهم.

فهذا محمد بن سليمان بن داود الجزولي[50](ولد سنة806هـ/ 1404م)، اشتغل بجزولة ستة عشر عاما في الفقه والعربية والحساب وغير ذلك، ثم ارتحل ودخل الحرمين وتصدر بمكة للتدريس والإفتاء، وكان بارعا في الفقه والأصول، متقدما في العربية.

أما أبو عبد الله محمد بن سليمان الروداني[51]، الذي أتقن طرفا من علم الحكم والهيئة والمنطق، فجاور بالمدينة المشرفة، ونشأت له هيبة في القلوب، ثم انتقل إلى مكة، ولم يزل مقيما بها، وحصلت له حظوة عظيمة عند أمرائها.

الخلاصة:

مجمل القول إن رحلة علماء سوس إلى الحجاز، سعت إلى المزاوجة بين تحقيق الأغراض الدينية المتمثلة في أداء فريضة الحج، وسنة العمرة، ومجاورة الحرمين؛ وبين تحقيق المطالب العلمية المتجلية في لقاء شيوخ العلم واستجازتهم، وإدخال المرويات مع الحرص على التعالي في إسنادها، وكذا استفتاء علماء الحرمين، إضافة إلى إفادة نزلاء الحرمين تدريسا وإفتاءً.والله الموفق.

---

(50) طبقات الحضيكي: 234/1، رجالات، ص. 14، وليس هذا صاحب "دلائل الخيرات .

(51) الصفوة، صفحتا 331-333.

المصادر والمراجع

1-اختصار علوم الحديث، أبو الفداء عماد الدين ابن كثير، تعليق وشرح: صلاح عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. 1، 1409هـ/ 1989م.
2-دليل مؤرخ المغرب الأقصى، عبد السلام بن سودة، دار الفكر، بيروت، ط. 1، 1418هـ/ 1997م
3-سوس العالمة، محمد المختار السوسي، مؤسسة بنميد للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1379هـ/ 1960م.
4-صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد بن الحاج الإفراني، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث المغربي، الدار البيضاء، ط. 1، 1425هـ/ 2004م.
5-طبقات الحضيكي، محمد بن أحمد الحضيكي، جزآن، تقديم وتحقيق: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1427هـ/ 2006م.
6-علوم الحديث، أبو عمرو عثمان ابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر، المكتبة العلمية، بيروت، 1401هـ/ 1981م.
7-فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، أبو بكر محمد ابن خير، تحقيق: فرنشكة قدارة وخليان ربارة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط. 2، 1399هـ/ 1979م.
8-كتاب الرتائم الجميلة في ذكريات الحبيب الجليلة، تأليف العلامة موحتاين الحاج عبد الله بن أحمد الفارسي، مراجعة وتنقيح: الأستاذ المختار بيزكارن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1413هـ/ 1992م.
9-المجموعة الفقهية في الفتاوي السوسية، جمع وترتيب: محمد المختار السوسي، إعداد: عبد الله الدرقاوي، منشورات كلية الشريعة، أكادير، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط. 1، 1416هـ/ 1995م.
10-المعسول، محمد المختار السوسي، الجزآن 6 و17، مطبعة النجاح الجديدة ومطبعة الجامعة، البيضاء، 1960-.1963
11-المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط.3. 1981.